

## في المغرب، المراحل والقضايا والخصائص العامة

شهد تاريخ حركة الشعر المغربي الحديث خمس مراحل أساسية، اكتسب فيها مفهوم الشعر عدة صور وأشكال، في تاريخ حركة الشعر المغربي الحديث، وكل مرحلة من هذه المراحل، كان الشعر يكتسب فيها مفهوماً خاصاً، راح يتطور حسب تطور وعي الإنسان المغربي بفضل التقدم الفكري والثقافي والأدبي، ونوجز هذه المراحل في ما يلي:

### 1- مرحلة الربع الأخير من القرن التاسع عشر:

عرفت هذه المرحلة شعراء كثيرين وأغلبهم تركوا لنا دواوين شعرية ضخمة تناولت مختلف الأغراض المألوفة. غير أن هذه الكثرة من الشعراء والدواوين الشعرية لا تكشف عن تصور مقبول وواضح نحو عملية الإبداع الشعري، ومفهوم مضبوط ومحدد نحو طبيعة العمل الشعري ووظيفته وهدفه، إذ غاب مفهوم الشعر بمعناه الفني، وكان يغلب عليه التقليد الأعمى وشعر المناسبات. ومعنى هذا أن الصبغة الانفعالية، التي تعكس معاناة الذات الشاعرة وعذاباتها منعدمة في هذا الإنتاج، ولذلك كانت تتكرر المعاني، والصور من قصيدة إلى أخرى. بل كانت تتكرر حتى الكلمات والعبارات بعينها، مما يؤكد أن الناس لم يكونوا يشعرون، وإنما كانوا ينظمون ويفتعلون التجارب. وكانوا يتمثلون الماضي شكلاً ومضموناً.

### 2- مرحلة أوائل القرن العشرين:

استطاعت الحركة السلفية، أن تحدث هزة وخلخلة في مفهوم الشعر، ولكن هذه الهزة أو الخلخلة التي كانت لصالح الحركة نفسها وليس للفن، وامتد تأثير هذه الحركة، وظهر كثير من العلماء الذين تشبعوا بالأفكار الإصلاحية، خاصة أفكار جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا، فنتج عن ذلك إقبال الشعراء المغاربة على النظم في موضوعات تهّم هذا الفكر الإصلاحي، وكثر الشعر الذي يدعو إلى نشر المعارف والعلوم، والدعوة إلى تحرير الفكر، وإنشاء المدارس والمعاهد العلمية. إن الشعر - في

هذه المرحلة التاريخية - لم يعد مجرد ثقافة مكملة لشخصية العالم أو القاضي، بل أصبح ذا موضوع مستقل نسبياً، هو موضوع الفكر السلفي.

فالتغير الذي طرأ على مفهوم الشعر، لم يمس عناصر الفن، ولكنه يمس فقط مجال موضوعه، فقد تخلص من الخلط بينه وبين علوم الفقه واللغة والبلاغة، وكذلك من اعتباره مجرد آلة لفهم هذه العلوم، ومن اعتباره ثقافة متممة لثقافة الفقيه أو الكاتب أو القاضي، ولكننا ما زلنا نلاحظ أن الشعر، لم يقترب بعد من عناصر الفن. فأغلب الموضوعات التي تناولها هؤلاء الشعراء، كان لها ارتباط بالفكر الإصلاحى السائد، فهي إن حملت جديداً في الموضوعات الشعرية فإن مفهوم الشعر ظل بعيداً عن جوهر عناصر الفن.

### 3- مرحلة الثلاثينيات :

ظهر في المغرب مع بداية سنوات الثلاثين من القرن العشرين، بعض الشعراء الذين أطلق عليهم شعراء الشباب، وكان لهؤلاء اتصال بالمدارس الشعرية المشرقية وخاصة المدرسة الإحيائية، وكذلك ظهرت في هذه الفترة بالذات، حركة نقدية استفادت من التوجيهات النظرية التي كانت سائدة في المشرق العربي. فمن الملاحظ أن كتابات العقاد وطه حسين والرافعي والزيات كانت تصل بكيفية منتظمة إلى الوسط الأدبي المغربي، وتلقى الصدى الحسن في نفوس المغاربة، مما جعل الحركة الشعرية المغربية والحركة النقدية تأخذان مجرى مغايراً. لقد كشفت الساحة عن صراع حاد، بين أنصار المجددين وأنصار المقلدين، ويبدو أن ما كان يعرف بالشعراء الشباب قد أحكموا سيطرتهم على الميدان. وكان وراء اكتساب هذا المفهوم الجديد للشعر أسباب موضوعية، من أهمها:

أ- التطور الذي حدث للبنية الاجتماعية والثقافية والفكرية.

ب- التواصل بين المغرب والمشرق العربي الذي كان قوياً، عن طريق البعثات العلمية والكتب والألات والصحف.

ج- ظهور حركة نقدية، عملت على نشر بعض المفاهيم في إطار اتجاهات متنوعة ويمكن أن نقسم هذه الدراسات النقدية إلى قسمين: قسم كان يهتم بالأدب العربي القديم، وقسم آخر يهتم بالأدب العربي الحديث. إننا منذ فترة الثلاثينيات - نجد أقلاماً جادة تكتب حول أعلام مدرسة النهضة في المشرق، فنقرأ على سبيل المثال دراسات حول شوقي، والبارودي، وحافظ إبراهيم، إلى جانب دراسات أخرى حول طه حسين والعقاد والرافعي بعد ذلك

تحت اسم (يوم شوقي بفاس) عام 1936م. ونشير كذلك إلى دراسات للأديب محمد أبي حنيني عن العقاد، وطه حسين والرافعي بمجلة المغرب، وإلى سعيد حجي حول حافظ إبراهيم وأحمد زكي أبي شادي، وعبدالكبير الفاسي حول آثار الرافعي...

والمهم في هذه الفترة أننا لأول مرة، بدأنا نسمع الحديث عن بعض المصطلحات مثل: الخيال الشعري والشعور، والإبداع والذات الشاعرة، والذات الجماعية. وما إلى ذلك ولكن كل ذلك كان يتم في إطار الحركة الوطنية وعلاقة هذه الحركة بالإبداع الأدبي.

#### 4- مرحلة الأربعينيات إلى الستينيات وسيادة مفهوم الشعر الوجداني:

اكتسب الشعراء المغاربة، منذ السنوات الأولى من الأربعين، مفاهيم جديدة حول الشعر، تجاوزوا فيه الشعراء في الفترات السابقة، لقد كان هذا المفهوم يستمد مقوماته وأساسه من المذهب الرومانسي الذي تأثر به المغاربة في هذه الحقبة التاريخية، وكان مما ساعد على هذا المفهوم مجموعة من الأسباب أهمها:

أ- العنصر الزمني، فمن الملاحظ أن الوعي الأدبي الذي بدأ قبل هذه الفترة وصل في مرحلة الأربعينيات إلى مستوى متقدم.

ب- استمرار احتكاك المغرب بالمشرق على نحو أشد، مما جعل الشعراء المغاربة يكتشفون طرقاً جديدة في التعبير عن مشاعرهم وأحاسيسهم ففي هذه الفترة تم التعرف بشكل أفضل وأعمق على المدارس الشعرية الجديدة، مثل أبولو، والمهجر، والديوان.

ج- مواصلة نشر الدراسات الأدبية والنقدية في صور أكثر عمقاً في دراسة القضايا الأدبية والشعرية عبر عديد من الصحف والمجلات.

كان من شأن هذه العوامل كلها أن تعمل على خلق حركة شعرية جديدة غنية في مضامينها وصيغها وعناصرها الفنية، ومن الشعراء الشباب الذين أسهموا في هذه الحركة نجد: عبدالكريم بن ثابت، ومصطفى المعداوي: وعبدالسلام العلوي، وعبد المجيد بنجلون، وعلال بن الهاشمي الفيلاي، والبوعناني ومحمد السرغيني، بالإضافة إلى الشعراء الذين ينتمون إلى الفترة السابقة، وكانت لهم استمراريتهم في هذه الحقبة مثل: عبدالقادر حسن، وعبدالمالك البلغيثي ومحمد الحلوي.

وجد هؤلاء الشعراء زاداً لا ينفد، في صور الشعر الجديد وصيغها الجديدة كما عند الشبابي وأحمد أبي شادي، وإيليا أبي ماضي وغيرهم.

إن الشعر الرومانسي الذي هيمن على هذه الفترة نوعان: نوع يرحل في الأشياء إلى درجة التوحد والذوبان. وهذا النوع يرقى إلى مستوى الشعر الرؤياوي الذي يكشف عن الأبعاد العميقة في النفس الإنسانية. ونوع ذاتي يهتم بالنزعات و الميولات الفردية ولا يستطيع تجاوزها إلى احتواء ذات الآخرين، وهذا النوع الأخير هو الذي كان سائداً بشكل يلفت النظر..

لقد أجمع الرومانسيون على أن الشعر رسالة سماوية تعمل لخير البشرية، وأن الشاعر ليس واصفاً للواقع، أو مركباً للجمل اللغوية حسبما تتطلبه الموضوعات، وإنما هو كاشف للحقيقة في مجال الكون، والشاعر الحقيقي حين يشعر، لا يقصد إلى هدف معين أو يحسب حسابات لكل خطوة يخطوها.

إن الحركة الواقعية التي دخلت في صراع حاد ضد الرومانسيين في فترة الأربعينيات، تختلف كل الاختلاف عن التيار الوطني الذي عرفته حقبة الثلاثينيات، فالواقعيون الجدد يعترفون بأن الأدب معاناة قبل كل شيء وأنه تجربة ذاتية، ولكن على الشعراء جعل هذه المعاناة في خدمة قضايا الوطن، والوطن يومئذ يئن تحت وطأة ظروف الاستعمار، ففي نظرهم أن الوطن في حاجة إلى من يزيح عنه كابوس العبودية والظلم، لا من يبكي وينتحب ويجتر أوهام الذات.

يقول الأستاذ عبدالله إبراهيم: "إننا لا نستطيع أن ننتج أدباً مغربياً حياً، إلا إذا أنتجنا أدباً إنسانياً حياً، ولن ننتج هذا الأدب الحي إلا إذا تيقنا بأن الحقيقة واحدة في الشرق وفي الغرب، وأن الإنسان هو الإنسان في كل مكان".

لقد كسر الشعراء نظام الرتبة الذي كان يأسر مشاعرهم واحساساتهم، وابتعدوا عن التقليد الذي يقتل روح الإبداع في نفس الشاعر، وعملوا على ارتياد عوالم جديدة في اللغة والإيقاع وقبل هذا كله، كانوا مخلصين أوفياء لتجاربهم الذاتية، مما مكن لهم الانفلات من تكرار الموضوعات والأشكال، كما كان الشأن بالنسبة للشعراء في الفترات السابقة.

## 5- مرحلة الستينيات وما بعدها:

كانت التجربة الشعرية في هذه الفترة ناضجة في عملية بنائها الفني، والشعراء الذين يمثلونها كانوا في نفس مستوى الشعراء الرواد في المشرق العربي موضوعاً وبناءً وأداءً.

أحدث الشعراء المغاربة - في هذه الفترة المبكرة - خلخلة كبيرة لإقرار تصور مستقبلي لعملية الإبداع الشعري. فمحمد بنيس يقول: (... لقد كانت هذه الخلخلة ضرورية لإقرار تصور مستقبلي، ولذلك فإن القطيعة التي أعلنها الشعراء المعاصرون بالمغرب متأثرين بالحركة الشعرية المعاصرة في المشرق العربي لم تكن مشروع نزوة عابرة... بل كانت علامة مضيئة للوعي بدواعي التغيير والتحول في زمن، لم يعد يستسيغ القناعة والرضى بكل موروث قدسه أعداء الإنسان وحرّموا مسّه أو محاورته من منظور معاصر...).

هذه هي صورة الشعر المغربي في فترة الستينيات التي تعد فترة بداية لهذه التجربة الشعرية الجديدة - أما بالنسبة للعقد السابع فمن بين شعرائه: أحمد بنميمون ومحمد بنيس وعبد الرفيق جواهري، وإدريس الملياني... فكل عناوين القصائد والدواوين الشعرية كانت تكشف عن الفضاء الرمادي، الذي يزداد فيه اللون المغبر يوماً بعد يوم، حتى يتحول إلى السواد القاتم، فتكتحل العيون بالعمى والموت. إن الشعور بالإحباط، كان قد بدأ قبل هذه الفترة، ولكن وطأته تشد الآن، مثل كابوس يطوق الأعناق ويخنق الحناجر.

كان الشعراء، باعتبارهم ضمير الأمة، يعبرون عن الحزن الذي ينتابهم، وعن معاناتهم الذاتية، التي يفقدون معها إحساسهم بهويتهم الحضارية. فالشعر هو أداة التغيير، والشعراء يتحملون مسؤولية كبرى في خضم هذه الحياة التي لم تعد تؤمن بقيم الإنسان، فعليهم أن يضعوا أنفسهم ولغتهم الشعرية في خدمة المجتمع، إن التغني بالوطن، وبموقع ثقافته وحضارته، كانت سمة بارزة في شعر السبعينيات والثمانينيات.

لقد كثر نوع من الشعر في هذه الفترة، أطلقوا عليه اسم شعر الشهادة... هذا الشعر الذي يحمل مواصفات جديدة، تستند إلى معاني إنسانية سامية نجدها عند مجموعة كبيرة من الشعراء، وفي مقدمتهم: محمد بنيس، ومحمد بنطلحة ومحمد الأشعري وغيرهم.

وختاماً يمكن القول: إن هذه التجربة الشعرية، منذ الستينيات إلى اليوم، قدمت الكثير، وما زالت تقدم الكثير في العملية الإبداعية الشعرية، وليس فقط على المستوى الإقليمي والقومي، بل أيضاً على المستوى الإنساني.